إضاءة

إضافةً إلى طغيان اقتصاد السوق على مشاريع التوسعة والبناء والتسويق في مكّة وجرفها لكل ما هو امامها من مبانٍ تاريخية واجواء روحانية، فقد تسبّبت هذه الاندفاعة الاستثمارية الشرسة في انفصام هائل ناجم عن التعارض الشديد بين مبادئ النيوليبرالية والاسس الروحانية للحج

ناصر الرباط

مدينة الطوباوية الرأسمالية المقدَّسة

تغوُّل العمارة في مكّة

مكّة مدينة لا كغيرها من المدن. أولى مدن الإسلام المقدّسة وأهمّها، وقبلة صلوات المسلمين على مر العصور. تُشدّ إليها الرحال من كل فج عميق ويزورها كل سنة ملايين المسلمين ساعين لاستكمال دينهم والتزوّد منها بعبق روحاني يعينهم على مواصلة الحياة والتهيّؤ لما بعدها. لا تشابهها في ذلك سوى بعض المدن المقدّسة الأخرى في العالم؛ كالقدس وروما وبنارس وسان جوان دي كومبستللو، التي يحج إليها مؤمنوها ويتكبّدون لأجل ذلك مصاعب الطريق ووعثاء السفر. ولكنّ مكّة تزيد عليهم في أنّ الحج إليها فريضة على كل مسلم ومسلمة إن استطاعا إلى ذلك سبيلاً، ممّا يعني تعاظُم التدفّق إليها في موسم الحج مقارنةً مع غيرها من المدن المقدّسة وتطاوُله على مدى العام في زيارات المعتمرين. وقد تراكم فيها على مدى الخمسة عشر قرناً من تاريخ الإسلام ذكريات كثيرة، ابتداءً من أصولها ما قبل التاريخية من إعادة بناء البيت على أيدي إبراهيم وإسماعيل، ثم الحدث الأعظم من ولادة النبي محمد وترعرعه فيها، وولادة رسالته واشتداد عودها فيها، وعودته إليها ظافراً وفاتحاً عند اكتمال رسالته، مروراً بما خلّفه فيها الملايين من المقيمين والزائرين والمجاورين من عامّة المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، وما بناه الحكّام الطامعون بتخليد أسمائهم فيها، وانتهاءً بمشاريع التوسُّع العملاقة التي طوّقتها من كل حدب وزالت الكثير من معالمها القديمة في نصف القرن الماضي، ثمّ في السنوات العشرين الأخيرة.

مشاريع التوسُّع هذه، على الرغم من أهميتها الفائقة، من المواضيع التي لم تُناقش بما فيه الكفاية في الدراسات المعاصرة. هذا لا يعني أن الصحافة لم تغط هذه المشاريع العملاقة، أو أن الأدبيات المهنية من هندسة وعمارة وإدارة وتمويل لم تدرسها. فهناك العديد من المقالات الصحافية والبحوث العلمية التي وصفتها وحلّلتها. هذه الدراسات كلّها تلاحظ ضخامة مشاريع التوسُّع هذه وشموليتها وتعقيدها وارتفاع كلفتها الفلكية؛ إذ إنّ الدولة السعودية قد آلت على نفسها تأمين الحج بكل خدماته ومتطلباته، والتوسُّع في ذلك مع توسُّع عدد الحجاج وبلوغهم أرقاماً هائلة، كلهم يريد سقفاً وطعاماً وصحة وأماناً وسهولة في التنقل لأداء شعائر الحج في المدينة وحولها.

ولكنّ هذه الأدبيات، على كثرتها، نادراً ما تتطرّق إلى ما هو أبعد من القبول بضرورة التوسّع، على الرغم من تكاليفه الباهظة مادياً وعمرانياً ومعنوياً واجتماعياً، أو إلى التساؤل عمّا إذا كانت مشاريع التوسُّع هذه ضرورية أصلاً أو أنها تتقيّد بمعايير احترام قدسية المدينة وثرائها المتنوّع بالذكريات الإسلامية المتراكمة. أي أن النقد، بمعناه المعرفي الواسع، غائب أو شبه غائب عن دراسات مشاريع التوسُّع العملاقة في مكّة.

لهذا أسباب عديدة؛ أولّها هو غياب النقد البنّاء عموماً في الفكر العربي المعاصر، من جملة ما يغيب من الأدوات المعرفية الحديثة. وهناك أيضاً أسباب أكثر مباشرة بعضها يتعلّق بشحّ الدراسات النقدية المعمارية والعمرانية في اللغة العربية مقارنةً مثلاً بالنقد الأدبي أو الشعري. ولكن السبب الأكثر أهمية هو السعي الدؤوب للسلطات والمستثمرين في مكّة لإسكات أي محاولة لنقد هذه المشاريع النيوليبرالية الرابحة في المدينة المقدّسة وتصويره على أنه نكران لفضل السلطات في تيسير الحج وسهرها الدائم على توفير ما يحتاجه الحجيج.

ولكنّ النقد الأهم، برأيي، هو ذلك الذي يتجاوز حدود المدينة وحدود ذكرياتها وقدسيتها لكي يقدّم رؤية متكاملة لظاهرة أوسع من المدينة المقدّسة، ألا وهي ظاهرة المدينة الخليجية المعاصرة التي اقترح مايك ديفيس، العمراني الأميركي البارز، لها اسم مدينة الطوباوية الرأسمالية؛ فمشاريع التوسعة الهائلة في مكّة المعاصرة جعلتها أقرب إلى أن تكون واحدة من هذه المدن الخليجية من أن تكون المدينة المقدّسة المتفرّدة والمتميّزة التي كانتها منذ ظهور الإسلام وحتى الماضي القريب. هذه المدن الخليجية التي كانت تنام وادعة على شواطئ لازوردية هادئة أو في طيات صحارى ذهبية شاسعة حتى جيل مضى تُبنى اليوم بوتيرة هائلة وتتوسّع أفقياً وشاقولياً بسرعة خيالية. ولا يقتصر الأمر على دبي التي أصبحت رمزاً للانفلاش العمراني والمبالغة الاستهلاكية الهائلة، بل يتعدّاه لكلّ مدن الكويت وقطر والإمارات والبحرين وعُمان، وحتى غالبية المدن الكبرى في السعودية، كلّها منغمسة في عملية يمكن أن نسمّيها، نسبةً إلى دبي مدينة منشئها، بـ «الدبَيْنة»، وإن كانت كلّ منها تفتّش لنفسها عن صورة خاصة أو وظيفة مغايرة تميّزها وتعطيها شيئاً من التفرّد في حلبة منافسة حادّة على استقطاب رؤوس الأموال وشركات الإنشاء والتسويق والتشغيل، وفي النهاية المؤسّسات والأفراد الذين سيدفعون ثمن تلك العمارة ويستخدمونها.

> لم تعُد المدينةَ المتميّزة التي كانتها منذ ظهور الإسلام
>
> تعمل السلطات والمستثمرون على إسكات أي نقد لهذه المشاريع

لكن هذه الطفرة في الخليج ما هي في الحقيقة إلا طفرة صورة أكثر منها طفرة واقع كاملة متكاملة؛ فهي قد تجاوزت الحداثة من دون أن تمرّ بها وقفزت مباشرةً إلى ما بعد-حداثة الرأسمالية المتأخّرة، معربشةً على ثقافة الاستهلاك والاستثمار: طرفي الدائرة الاقتصادية النيورأسمالية الشرسَيْن. والخليج، على ما يبدو من خلال تسابُق دوله على اعتناق هذه الصورة، قد نجح في أن يكون معاصراً بالمعنى الرأسمالي العولمي للكلمة، أي الحاوي والمحتوى لمفاهيم السوق والاستثمار والاستهلاك، بغضّ النظر عمّا اضطرّ لتجاوزه من دون أن يجرّبه من مراحل النمو الصناعي والمعرفي والتقدّم العلمي والاجتماعي والتكنولوجي وما إليها من المفاهيم التي تُشكّل أركان ما نسمّيه بالحداثة، ممّا زاد الطين بلّةً في حالة مكّة هو البُعد المقدّس للمدينة والدور الخاصّ جداً التي تلعبه في أفئدة المسلمين؛ فبالإضافة إلى طغيان اقتصاد السوق على مشاريع التوسعة والبناء والتسويق فيها وجرفها لكل ما هو أمامها من مبانٍ تاريخية وأجواء روحانية تميّزت بها المدينة، فقد تسبّبت هذه الاندفاعة الاستثمارية الشرسة في انفصام معرفي وثقافي واجتماعي هائل ناجم عن التعارض الواضح والشديد ما بين مبادئ السوق النيوليبرالية والأسس الروحانية والزهدية لمناسك الحج ومراميه ولمعنى مكّة الإسلامي التعبُّدي الشامل.

(مؤرّخ معماري مقيم في الولايات المتحدة)

صورة جوية للمسجد الحرام في مكة و«أبراج البيت» على مقربة منه (Getty)

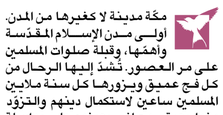

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

مستهلكٌ من نوع آخر

نحن أمام نموذج جديد من المستهلك: المستهلك للمقدّس، الذي تغريه شركات الاستثمار بالاستهلاك عن طريق تلاعُبها بالبعد الروحاني للمدينة المقدّسة. هذا المستهلك هو الدافع الأساس لتغوُّل العمارة في المدينة المقدّسة وخطّ الدفاع الأول في محاولة استعادة البعد الإنساني لقدسيتها. من هنا يجب على العمارة أن تلعب دوراً جديداً في تثقيف وتوجيه هذا المستهلك على الرغم من إغراء الطوباوية الرأسمالية المقدّسة.

إطلالة

لأنّ لكل عصر ذوقه وفهمه

زمن الترجمة

للترجمة قدرةٌ خارقة على التحرّك بين الأزمنة، فتنقُل كاتباً من زمنه الماضي وتبعثه مجدّداً، مجسّداً في كتابته، لكنْ في غير لسانه

مزوار الإدريسي

من بين الأحكام النقدية التي رُوِّج لها، في العقود الأخيرة - بخصوص الجنس الأدبي الأكثر اجتراحاً من قِبل المُبدعين العرب، والأكثر مقروئية من بين الأجناس الأدبية العديدة الحاضرة في المجال الإبداعي عربيّاً - الإقرارُ بأنّباقي الرواية وهيمنتها، والتسليمُ بأنّ الزمن الإبداعي العربي المعاصر هو «زمن الرواية».

لقد عُقِدتْ في هذا الشأن مؤتمراتٌ للنظر في «زمن الرواية»، وصدرت أعداد خاصة في مجلّات متنوّعة عالجَت الموضوع، مثلما أُلّفتْ كُتبٌ تخوض في هذه الظاهرة الأدبية التي عزّزها تنامي التأليف في الرواية والإقبال على استهلاكها، ناهيك عن تعاطي شعراء عرب متميّزين الكتابة فيها، مع ما لهذا الانصراف إليها من قِبلهم من رمزية، نظراً لمكانة الشعر التاريخية في تاريخ الثقافة العربية.

نعرف أنّ الرواية جنسٌ أدبي غربي طارئ على الثقافة العربية، وأنها بدأت اختراق ثقافتنا في سياق تَبَعيّ استعماريّ، وأنّ الاحتكاك بها أحدث تحوُّلاً عميقاً في تقاليد السَّرد العربي، وأنه ما كان لهذا الاحتكاك أن يكون عامّاً وقويّاً لولا الدور الذي قامت به الترجمة، في التعريف بأدب الغرب، وما نجم عنه من ظهور أجناس أدبية جديدة في ثقافتنا؛ كالمسرح والقصّة وغيرهما. إذن، لا عجب في أن يكون زمننا هذا زمنَ الترجمة بامتياز، لكونها الفاعل الأساس في تحريك الآسن، وزرْدنا بالجدّة، والدفع بأدبنا إلى المغامرة ليس في الرواية وحدها، بل في الأجناس جميعها، وفي تجسيد التلاقح الثقافي.

وطبيعي، تبعاً لذلك، أن تكون الترجمة في حدّ ذاتها جنساً أدبياً على حدة، وأن يُعترَف لها بتأثيرها القوي في الوسط الأدبي والاجتماعي معاً، بل أن نَنتبه إلى دورها الحاسم في لحظات مفصلية مُعيّنة تكون الأمم مأزّة بها، ففي مثل تلك اللحظات التاريخية يتوقّف على حركة الترجمة تطوُّر المجتمع ثقافياً أو تراجُعه، أو في تنوُّع إصداراتها أو تركيزها على خطّ بعينه، ويكفي التذكير بدورها في ترسيم اللغات الإقليميّة بصفتها لغات مستقلّة إثر ترجمة الإنجيل من اللاتينية إلى باقي لغات أوروبا المعروفة حالياً.

كذلك تكون الترجمة دالّة على الزمن الذي صيغت فيه، لأنّ في صدور كُتُب بعينها مترجَمة في زمن بذاته، عند مؤسّسات ترعاها، ما يشي بأنها تتأثّر وتؤثّر في زمن ظهورها، ولأن بروزها يُفصح عن وضعها في سياق محدّد، وما يُمكن أن يكون مطبوعاً به من احتقان سياسي أو اجتماعي، أو عن تمثيلها لحساسية تبحث لنفسها عن موقع، إلخ.

ينقل المترجم النصّ ويُحوّله ويؤوّله بأسلوب معيّن، ويتصرّف فيه بصيغة يتصوّرها ملائمة لوسطه وزمانه، فتبدو ترجمتُه مختلفة إلى حد كبير عن الأصل، أي في غير الصورة التي عُرف بها، أو تَظهر مختلفةً عن ترجمات سبقتها زمنياً، فينحو النقّاد وحتّى القرّاءُ بالملائمة عليه، ويتّهمونه سريعاً بالخيانة أو التحريف، نظرا لتمثّلهم الترجمة في صورة بعينها؛ يَقيسون عليها عملَ المترجم، وينسى هؤلاء أن للترجمة قرّاءها الذين تتوجّه إليهم، والذين يكونون من أبناء زمنه من المعاصرين له، فهو يترجم لهم، لأنه يعرف أخلاقهم وأذواقهم وفلسفتهم، وليس لمن رحلوا عن الوجود، من الذين لن يعرفوا مال أعمالهم، ولن يطّلعوا بأي حال على ما أُنجز بعدهم، أو حتى لمن سيأتون لاحقاً ممّن سيكون لهم معاصروهم من المترجمين الذين يُراعون قُرّاء عصرهم، لأنّ لكل عصر ذوقه وفهمه، وهذا يعني أنّ للترجمة زمناً آخر؛ لا ينحصر في ما عرضْنا له لحد الآن من هيمنة وتأثير.

> كثيراً ما تكون الترجمة دالّة على الزمن الذي صيغت فيه

ولا يقف الأمر هنا، فعلاقة الترجمة بالزمن أكثر تعقيداً، لأنّ لها قدرة خارقة على التحرّك بين الأزمنة، فتَنْقُل كاتباً من زمنه الماضي، إن كان ممّن غادروا العالم، وتبعثه في الحياة مجدّداً مجسّداً في كتابته، لكنْ في غير لسانه، فيكتسب قرّاءَ جُدداً يُعطونه الاستمرارية في الحياة، وفَرْق والتر بنيامين، وتَغدو نصوصه أو كُتبه القادمة من زمن سحيق حاضرة في ثقافة غريبة، ويصير هذا المؤلّف معاصراً لقُرّاء الزمن الذي تُترجَم فيه نصوصُه.

(أكاديمي ومترجم من المغرب)

تجهيز لـ جون ماصون

قراءة

حارث سيلايجيتش قصائد لما وراء الحياة

الشاعر في رحلته

في مجموعته الشعرية «ملتقى الكلمات»، التي صدرت ترجمتها إلى العربية حديثاً، تحضر تساؤلات الشاعر البوسنوي حارث سيلايجيتش في التاريخ والسياسة والثقافة

محمود منير

تحضر القصيدة لدى الشاعر والسياسي البوسنوي حارث سيلايجيتش (1945)، بوصفها فضاءً لمقاربة قضايا عديدة تشغله في التاريخ والسياسة والثقافة، حيث لا تنفصل لديه الكلمة في معناها الشعري عن رؤيته للواقع، إنما تأخذ أسلوباً مغايراً في التعبير عنها، وبذلك يقف المتابع أمام الانشغالات ذاتها داخل النص وخارجه.

يُعدّ آخر يبرز في شعره متعلّق بتأمّلاته في الحياة والموت، ومعنى الإنسان ووجوده، وغيرها من التساؤلات الفلسفية التي لا يكفّ، أيضاً، عن طرحها في مجموعته الشعرية «ملتقى الكلمات»، التي صدرت حديثاً نسختُها العربية بترجمة الكاتب الأردني إسماعيل أبو البندورة عن «الآن ناشرون وموزّعون». تبدو هذه الحمولة المعرفية والثقافية، إلى جانب تفرّغ سيلايجيتش للعمل العام، سببين أساسيين في تأخّر إصدار كتابه الشعري الذي يأتي في لحظة نضج يحكمها تصوّره من ضرورة «إنقاذ العالم بالشعر» - كما يوضّح مواطنه المفكّر والناقد أسعد دوراكوفيتش (1948)، في مقدّمته - في محاولة لتخليص هذا العالم من الابتذال والبشاعة بواسطة الشعر.

تصديقاً لهذه المقولة، يثبّت سيلايجيتش موقفاً ينتمي إلى منظومة قناعاته الراسخة بالعدالة والحرية، فيدوّن في إحدى قصائده: «سمعت الفلسطيني يقول:/ أحمل حفنة من تراب البلاد/ والتراب طعامي عندما أموت/ وستبقى بلادي في لحمي/ وأنصت لنفسي وهي تتباهى:/ بلادي واسعة لا يمكن نقلها بالحفنات/ كافية لأكون منغرساً فيها/ وعندما تازف الساعة/ يمكنها أن تغمر كياني...».

ومرّة ثانية، يُحاكم الشاعر أخلاقياً أحد الكتّاب الروس، الذي كان مع المعتدين على تلال سراييفو، وقام بقنص السكّان المحاصرين فيها أثناء الحرب البوسنية خلال تسعينيات القرن الماضي. وفي قصيدته يصف كيف جاع الناس خلال الحصار ولم يجدوا سوى قليل خبز وماء إلى أن وصل «ضيف» من بعيد ورمى الناس ببندقيته حيث سقطوا مثل الدمى، حيث يكتب في وصف المشهد: «سراييفو العطشى.. الجائعة/ سراييفو المدماة/ لا تشبع/ أفئدة العالم الكبير تذوب/ وعلى سراييفو/ المغسولة من الأوهام/ على ساحة الموت تلك بين الجثة والنار/ بسقط التاريخ/ التاريخ الذي نسيته أوروبا../ تاريخ حقيقي ذو لون واحد/ بدون مرايا.. بدون آخر/ غير ملوث بحب الإنسان،/ غير ملوث بنداء السلام/ بدرع أو بدونه.. منتصر دائماً./ تاريخ قدري سماوي».

> محاولةٌ لإنقاذ العالم من الابتذال والبشاعة بكتابة الشعر

مساحة أخرى تستحوذ على نظرة سيلايجيتش تجاه الكون والإنسان وما يتولّد عنها من صور وبقيض من دلالات، بلغة تنزع نحو الشذرة والومضة السريعة المكثّفة بالمعنى والإشارات، حيث يقول في قصيدة «انتظار»: «على الطريق نفسه/ داعبت الحياة/ رغبت في الالتحاق بها/ لكن الحياة غدَت الخطى/ كي تسبقني./ أقف الآن وحيداً/ وراء الحياة، في مكان ما حيث كانت الطريق/ وأنتظر..».

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

حارث سيلايجيتش (Getty)

فعاليات

تقيم «مكتبة عبد الحميد شومان» في عمّان، بين العاشرة صباحاً والخامسة مساء، يوماً بعنوان **ماراثون القراءة**، حيث يتم تجهيز شكل المكان بطريقة مشابهة لسباق الماراثون الرياضي، فهناك خط بداية وخط نهاية ومسار للمشاركين، بهدف التسابق لقراءة أكبر عدد من الصفحات في هذه المدة بغض النظر عن نوع الكتاب المقروء.

اليد التي تَطبع عنوان معرض جماعي ينطلق في «غاليري آرت لاب» ببيروت، عند الحادية عشرة من صباح بعد غد السبت ويستمر حتى 24 من الشهر الجاري. يضمّ المعرض، الذي ينظمه «استوديو بيروت للطباعة»، أعمال 25 فناناً أوروبياً تتراوح بين النقوش الخشبية والخطية والطباعة الحجرية والنقوش الغائرة، ومن بينهم: **إيفون اليكسييف**، و**اليس امورووز**، و**ميشيل بريزيت** وآخرون.

تحت عنوان **حيوية**، ينطلق معرض الفنان **مروان الجمل**، في «غاليري مشربية للفن المعاصر» بالقاهرة، عند منتصف بعد غدٍ السبت ويتواصل حتى الحادي عشر من كانون الثاني/ يناير المقبل. في تقديمه، يصف الفنان المصري مجموعة الأعمال المعروضة بأنها «تستكشف جماليات الطبيعة الديناميكية والجامحة».

تختتم اليوم فعاليات «ملتقى السرديات السابع» في مدنين التونسية، والذي انطلق أمس بعنوان **السرد والبحر**. المحاور التي تناقشها جلسات الملتقى هي وجوه البحر ودلالاتها في المدونة السردية العربية والأجنبية القديمة والحديثة، والبحر في سرديات الجغرافيين والمؤرّخين العرب، والبحر في الأدب السردي الموجه للطفل.